# النحو في بلاط الأمراء (*)

دكتور عبد الوهاب ربيع محمود

من المسلم به أن البحث العلمى غالبا ما يتأثر بالجو العام السائد فى المجتمع ، وأن ازدهار العلوم ورقى الفنون له عـوامله ودوافعه ، ولا يمكن أن ننكر أثر الرئاسات فى ذلك ، فالناس على دين ملوكهم ، من هنا وجدنا المجد متداولا بين العلوم فمرة يجوز الفقه ورجاله نصب السـبق ، وتـارة نـرى الفلسـفة مسـيطرة ، وآنـا نـرى الفلك والتنجم ... الخ .

وعلم النحو أو صناعة النحو لم تحرم من مثل ذلك وقد قصدت هنا الى ايضاح أثر تشجيع الأمراء وأهل الرئاسات فى نمو النحو وعمق مباحثه ، وبخاصة هؤلاء الذين كانوا يرون اللحن هجنة ، والانحـراف عن الصواب يزرى بالشريف ، قد حدثتنا كتب السير والتراجم أن ذوى اليسار والخلفاء ورجالات الحواشى ، كانوا يتخذون لأبنائهم المؤدبين حرصـا على سـلامة الألسـنة ، التى هى من مؤهلات الرئاسـة فى هيئـاتهم .

واذا كان النحو قد اتسم غالبا بالصعوبة ومشقة المرقى عند أهل العلم به ، والانقطاع له ، فان الناشـئة كـانت تحمى بين لادلاف الى وطيسه .

---

(*) كما يصوره كتاب الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى .

يقول الجاحظ :

« واما النحو • فلا تشغل قلبهم منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومقدار جهل العوام فى كتاب ان كتبه وشعر ان أنشده ، وشىء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو به أولى ••• وانما يرغب فى بلوغ غايته ، ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج الى جسيمات الأمور ••• وعويص النحو لا يجرى فى المعاملات »(١) •

وكأنى بابن السكيت يخاطب هؤلاء بقوله « وخذ من النحو ما تقيم به الكلام ودع الغوامض »(٢) •

وقد كان هذا الاحساس وراء ما يقال وما يصاغ من نوادر تحمل بين حروفها وتوحى ظلالها بمدى التضجر من النحو وأصحابه • « اللهم انا نعوذ بك من رقاعة المنشئين ، وحماقة المعلمين ، وركاكة النحويين »(٣) •

« من تعلم علم أبى حنيفة فقد تعرض للسلطان ، ومن تعلم النحو دله بين الصبيان » (٤) « ما زال أخذهم فى النحو يعجبنى حتى سمعت كلام الزنج والروم » (٥) •

وهذا كثير مبثوث بين السطور ، وليس استقصاؤه من غرضنا ولكنا عمدنا الى الفكر النحوى فى ردهات القصور ، وعلى طنافس ذوى اليسار •

وربما قيل ما شأن هؤلاء والنحو ، فما هو بالمسلى ولا مسائله

---

(١) مواقف تربوية ص (٢) السابق •
(٣،٤،٥) الامتاع ١٢٣/٢ ، ١٣٩ •

بمادة امتاع ، فنقول : ان النحو علاقة وجدانية بين اللفظ والمعنى وبغيره لا فهم ولا تذوق لشعر ولا لنثر ، كما أن النحو هنا ليس بالنحو المتداول ، بل نحو « ارستقراطيا » يتناسب والفكر « الارستقراطى » للسامعين ، فلا ذكر لما سهل ووضح من المسائل ، بل يعمد فيه الى ايضاح مشكل ، أو كشف النقاب عن محدر ، ومن هنا كانت أهمية الوقوف على ما بحث من مسائل خطف بالنحو خطوات الى الامام وكانت حصيلتها ثروة علمية لا تنكر .

ومجالس هؤلاء السادة كانت تأخذ شكل المناظرات والمحاورات العلمية أو بتعبير عصرنا « الصالونات الأدبية » ، الحرية العقلية فيها مكفولة للجميع ، والصدر فيها متسع لكل ما يقال ، وكأن سلطان العلم والفكر فوق كل سلطان ، هذه المجالس كانت جامعة حرة أبوابها مفتحة لكل راغب فى الدرس ، وقبل أن تعايش جلساءها لنسمع منهم ، تشير هنا الى صعوبة هذه الطريقة ، وما يتطلبه التناظر من رباطة جأش ، وسرعة بديهة ، وسعة المام بمذاهب الفن . وقد كفانا شيخنا « السرافى » تصوير ذلك بقوله :

« اعذر أيها الوزير . فان العلم المصون فى الصدر ، غير العلم المعروض فى هذا المجلس على الأسماع المصيغة ، والعيون المحدقة ، والعقول الحادة ، والألباب الناقدة ، لأن هذا يستصحب الهيبة والهيبة مكسرة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مغلبة وليس البراز فى معركة خصة ، كالمصاع فى بقعة عامة » (٦) .

ومن هنا كان فرسان هذا المجال ممن لا يشق لهم غبار لتتحقق المتعة العقلية ، ويأنس الفكر بما يساق من مسائل وقضايا ، يصور لنا ذلك قول « البرمكى » لحظة تناظر « سيبويه والكسائى » (٧) حضرته وهو

(٦) الامتاع ٢/١٧٠ .

(٧) راجع المناظرة فى الأشباه والنظائر .

الوزير : « قد اختلفتما وانتما رئيسا باديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ، وكثيرا ما كان العلماء يلجأون الى التناظر بغية تحقيق مسألة أو معرفة مدى صوابها يقول « الزجاجى » « .. كانت حلبة التنظر باجتماع ذوى المهم ، والنظر والفحص والجدل معنا فيها فاصلة بيننا ... حتى تصير معا بحق النظر الى الصواب فنعتقده جميعا »(٨) .

ومع الادراك الكامل لأثر هذه المجالس فى رقى النحو وتشعب مباحثه رأينا من يراها عامل هدم بقوله « ... كان هناك عاملان مهمان ساعدا على بقاء الدراسات النحوية زمنا طويلا فى هذا المستوى السطحى الجزئى ، وشجعا النحاة على الرضا به لأنفسهم .

**الأول** : اجتماعى ، تمثل فى تشجيع الخلفاء والأمراء وأصحاب الثراء لهذا الضرب من المناقشات والمناظرات حول الجزئيات ، الهامشيات من مسائل النحو ، بحيث أصبح ذلك طابعا عاما ساد حلقات الدرس بسبب ما ارتبط به من عناصر التنافس والكسب المادى والأدبى(٩) .

ومن حقنا أن نسأل لم ازدهر الشعر ودراساته بالتشجيع ؟ وجمد النحو ؟ أليس فى هذا تجن واضح على صناعتنا ، وأين الهامشيات فى مسائل التناظر التى تناولت قضايا لم يتسع لها مجال الدرس المعتاد .

**الجو العام للتناظر :**

يعد الوقوف على ما تيسر من صور هذه المناظرات يمكن تصوير ظروفها أو ملابساتها بصفة عامة فى قولنا ان التناظر قد يدفع السبل محاولة اثبات القلبة والظفر اما لمدرس أو متجه نحوى ، كما حدث بين

---

(٨)

(٩) عبد الوارث مبروك فى اصلاح النحو /١١ ( دار القلم ط / ١ ـ الكويت ) .

سيبويه والكسائى فى المسألة الزنبودية ، والغلبة هنا من نصيب صاحب الحظوة عند أمأ المجلس ، وهـا هو يحيى اليزمكى يقول فى النهـاية لسيبويه بعد أن مال الأعرابى مع الكسائى « قد تسمع أيها الرجل » وهنا يندجر شيخنا وتأبى نفسه الا أن يموت كمدا .

وفى المناظرة المشهورة بين السـيرافى ، ومتى بن يونس ، كثيرا ما كان ابن الفرات ما يزج بنفسه تشجيعا للسـيرافى وتهوينا لمتى ، من ذلك قوله للسيرافى « أيها الشيخ الموفق أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشد فى افحامه ، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنع به » .

وقوله لمتى « يا أبا بشر : أكان هذا فى نحوك » ؟

وقوله للسيرافى « تمم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس ، والتبكيت عاملا فى نفس أبى بشير » .

وقوله : « سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فان هذا كلمـا توالى عليه بان انقطاعه ، وانخفض ارتفاعه » .

وفى نهاية المناظرة يقول الوزير السيرافى :

« عين الله عليك أيها الشيخ ، فقد أنديت أكبادا ، وأفررت عيونـا وبيضـت وجوها ، وحكمت طرازا لا يبليه الزمان ، ولا يتطرق اليـه الحـدثان »(١٠) .

فى هذا الجو الذى يسود فيه التنافس يحاول كل من المتنـاظرين اظهار قوة العارضة يحضره من بيده المدد ، ومما يعاب عليهم ما يصدر من عبارات تجريح كما قال الكسائى لسيبويه : لحنت ، وكمـا حـدث

---

(١٠) راجع نص المناظرة فى الامتاع ٢/١٧٠ .

بين أبى حـاتم والتوزى وقد تناظر حـول « الفردوس » مـذكر هو أم مؤنث « فقال لى يا عاقل .. تعلت « يا نائم هذه حجيتى »(١١) .

وربما كان التناظر على مضض منهما ، كمـا حدث بين المـازنى وابن السكيت فقد سأل المازنى ابن السـكيت : ما وزن « نكتل » من الفعل ولم جزمه فى الآية : ( فأرسل معنا أخانا نكتل ؟ ) يقول المازنى ففكر ونشور فاستحييت له ، فلما خرجنـا قال لى : ويحك ما حفظت الود عجلتنى بين الجماعة .

وربما كان التناظر بغير حضور كما يصور ذلك الفارسى بقوله عن « الرمانى » : « ان كان النحو ما يقول « الرمانى » ، فليس معنا منه شىء ، وان كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منـه شىء » ويحكم السيوطى غيابيا بقوله « النحو ما يقول الفارسى ، ومتى عهد النـاس أن النحو يمزج بالمنطق » (١٢) .

## الأثر التربوى لهذه المجالس :

قيل ان كلام الملوك ملك الكلام ـ فالنحو فى بلاط الأمراء هو أمير على ما سواه فمسألة درست بحضور علمين من أعلام النحو أو أكثر وأجيز صوابها أمام جمع من النظارة على رأسهم أمير ، جديرة بالقراءة والوقوف عليها ، خذ مثلا موقف الـوزير ابن العارض وقد حـدثه « أبو حيان » عن مناظرة السـيرافى « ومتى » بحضرة « ابن الفرات » فقد قال له : « اكتب هذه المناظرة على التمام فان شيئا يجرى فى هذا المجلس المنيه بين هذين الشيخين يحضره أولئك الأعـلام ينبغى أن يغتنم سماعه ، وتوعى فوائده ، ولا يتهاون بشىء منه ... »(١٣) .

---

(١١) الأشباه والنظائر

(١٢)

(١٣) الامتاع ٢/١٧١ .

ألست معى أن مسائل النحو التى حوتها المناظرة اكتسبت شهرة وعرفها حتى من لا تعنيه المعرفة وما ذلك الا انها كانت من كلام الحضره •

واذا كان من مسلمات أسس التربية أن الجو السائد عند التلقى لمعلومة من شأنه أن يتدخل ، فى مدى تقبلها وتمكينها من نفس المتلقى ، فان جو هذه المناظرات واسلوبها الحوارى والقصصى أحيانا من شأنه أن يمكن للمعلومة فى نفس السامع لأنه مشارك فى صياغتها بانصاته وترقبه وحرصه ، ولا يمكننا أن ننكر أثر التناظر فى تعويد النشىء آداب الحوار وحسن الاستماع ، وتعلمهم سوق الحجة وتكسبهم الثقة بالنفس مع التمرن على سرعة التعبير وحرية المناقشة » •

**المادة العلمية :**

لو اننا حاولنا الوقوف على مسائل النحو التى أثيرت فى تلك المجالس ، لوجدناها فى غالبها مشكلات تحتاج الى أعمال فكر وليس من السهولة ادراك أبعادها ، وبخاصة أنها أسئلة تطلب اجاباتها دون الرجوع الى مصدر أو مرجع ، وربما أخذت مظهر الألغاز أو الأحاجى ، يطلب بها تفسير المعنى أو حل اعراب ، لذا كان الظفر فيها وحوز قصب السبق مظهر تفوق على الأقران عظيم ، لاسيما والمواقف تساق فى حضرة أمير أو وزير •

وقد سجل السيوطى كثيرا من تلك المجالس والمناظرات ولم يهمل أيضا الاحاجى والألغاز • وهذه الأمور عندى مشجعات الدرس والغوص خلف لآلىء النحو •

وأول ما طالعنا فى هذا الباب مناظرة الكسائى وسيبويه فيما اشتهر « بالمسألة الزنبورية » وشهرتها تغنى عن تناولها •

ومن مناظرات الكسائى « مناظرته اليزيدى » بحضرة المهدى حول النسب الى « البحـــرين » والنسب الى « الحصتـــين » • فقـــالوا : « بحرانى » « وحصنى » ولم يقولوا « حصنانى » • ويجيب اليزيدى « انهم لونسبوا الى « البحـــرين » فقالوا « بحـــرى » لم يعرف الى البحرين نسبوه أم الى البحر ؟ ، ولمـــا جاءوا الى الحصـــنين لم يكن موضع آخر ينسب اليه غير الحصتين فقـــالوا ( حصنى ) ولم يرتض الكسائى هذا التعليل ، ولكنه لا يجرؤ على التدخل المباشر بل يطلب الكلمة عن طريق أحد الجلساء الذى قال للأمير :

« اصلح الله الأمير » ،ان هذا يزعم انك لو سألته لأجاب احسن مما أجبت به ، قال فقد سألته :

فقال الكسائى : انهم لما نسبوا الى الحصـــنين كان فيه نونان فقـــالوا « حصنى » اجتزاء باحدى النونين من الأخرى ، ولم يكن فى البحرين الا نون واحدة فقالوا « بحرانى » •

ويتكلم اليزيدى معترضا بكيفية النسب الى رجل من « بنى جنان » وبين النسب الى « الجن » •• وهنا يقول لهما المهدى (١٤) تناظر •• الخ المجلس والنسب الى الملحق به علامة التثنية مشـــكل لأنه اما أن ينسب اليه باقيا على حاله أو مسمى به ، وفى الأولى لابد من حذف زوائـــده لغرض صياغى ودلالى ونطقى وقد تكفلت كتب الصرف بذكر علة ذلك •

وفى الثانية قضية النسب يعتبر فيها الأداء اللغوى له بعد التسمية وللعرب فيه لغتان •

الأولى : معاملته بعد التسمية كحاله قبلهما اعرابا وينسب اليـــه بحذف العـــلامة •

---

(١٤) الأشباه والنظائر

الثانية : **الزامه الألف** ، وينسب اليه مع تثبت العلامة مع يائى النسب فتقول : « بحرانى » وقد تناول « المرضى » • فى شرح الكفية تلك الكلمة بالدراسة قال : « وقد جاء « البحرين » فى المثنى على خلاف القياس يقال : هذه البحرين بضم النون ، ودخلت البحرين بفتحها ، قال الأزهرى ومنهم من يقول « البحران » على القياس ، لكن النسبة الى البحران الذى هو القياس أكثر ، فبحرانى أكثر من بحرينى ، وان كان استعمال البحرين مجعولا نونه معتقب الاعراب أكثر من استعمال البحران كذلك »(١٥) •

ألا يكفى هذا دليلا على صعوبة المسألة وفيه دليل ما ذكرنه من أن مسائل التناظر سمتها الصعوبة والخفاء •

وهذه المجالس والمناظرات بحضرة ذوى اليسار المادى من الكثرة بمكان ، لكننى عمدت الى مجلس خاص يغلب على ظنى أنه لم يتناول بقلم دارسى قبل اليوم ، انه مجلس الوزير « أبى عبد الله العارض » وزير صمصام الدولة البويهى ، فقد سامره أبو حيان التوحيدى أربعين ليلة ثم طلب منه ولى نعمته « أبو الوفاء المهندس » أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من أحاديث ، سجنها التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » وها أنا ذا قاصد مسائل النحو فى هذا السفر لأصور بها النحو فى بلاط الأمراء ، وأقدم لهذه المسائل بسطور عن المؤلف وكتابه •

أبو حيان : على بن محمد العباس التوحيدى (١٦) أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء ، فرد الدنيا ، الذى لا تطير له ذكاء ، وفطنه وفصاحه، مغمور تسلق بعبقريته معارج الشهرة ونال بعلمه شرف الخلود ،

---

(١٥) السابق •

(١٦) معجم الأدباء ١٥/٥ ، لسان الميزان ٣٦٩/٦ ، ميزان الاعتدال ج ٣/٣٥٥ ، أبو حيان التوحيدى / الكيلانى ـ دار المعارف ـ وأبوحيان التوحيدى فى كتاب المقابسات لعبد الأمير الأعسم •

عاش ما بين عامى ٣١٠ هـ : ٤١٤ هـ شخصية طلعة ذات استعداد للبحث الموسوعى فقدمه فيلسوفا مع الفلاسفة متكلما مع المتكلمين ، لغويا مع اللغويين ومتصوفا مع المتصوفين ، وها هو نحوى بين النحويين •

والتوحيدى ليس غريبا عن صناع قضايا النحو ، فقد عاش القرن الرابع الذى تصدر فيه النحو مكانة مرموقة من كونه وسيلة ضرورية لصون اللسان وفهم القرآن ، ولم يكن منه للتقرب من السلطان ، والتوحيدى تلميذ للسيرافى ، الرمانى ، وعاصر الفارسى ، وابن الانبارى وابن جنى ، وابن الخياط ، لذا رأيناه نحويا ذا طابع خاص كما يصوره تناوله للمسائل النحوية ، وهو ان كان لم يترك مصنفا خاصا بالنحو فقد جاء نحوه مسائل تناثرت بين السطور ، استطعنا من خلالها أن نعرف موقفه من النحو ومعرفة قدره ، فقد عاب الوزنين بالضعف فى النحو بقوله :

« وليس ابن عباد فى النحو بذاك (١٧) ، ولا كان أيضا ابن العمير الا ضعيفا وكان يذهب عليه الشىء اليسير » ويقول عن ابن اسحاق « وانما يتقمم عليه قلة نصيبه من النحو » •

ولما قال أبو عبيد « اللهم انا نعوذ بك من ••• ركاكة النحويين » رد التوحيدى ما يتعلم الناس الا من ••• والنحوى •

وقد رأيت التوحيدى يعرف للنحو قدره ولمراعاة معانيه أهميتها ، فقد قال أبو عبيد « من غير من نفسه بلفظ ملحون أو محرف ، وافهم غيره فقد كفى »(١٨) •

يتصدى التوحيدى له قائلا :

« فكيف يصح هذا الحكم ، ويقبل هذا الرأى ، والكلام يتغير

---

(١٧) الامتاع ج ٢

(١٧،١٨،١٩،٢٠) الامتاع ج ٢ •

بتغير المراد منه باختلاف الاعراب ، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء ، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال ، كما يتقلب المعنى باختلاف الحروف »(١٩) .

كما انه يصور لنا شيوع اللحن وتفشى الخطأ على الألسنة فى قوله : « ان من يتكلم بالاعراب والصحة ولا يلحن ، ولا يخطىء ويجرى على السليقة الحميدة ، والضربية السليمة قليل أو عزيز » ويوضح لنا أن أهمية الاكتساب فى سلامة النطق بقوله :

« وان الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية ، وهذا المنشأ أن يتعلم النحو ، ويقف على أحكامه ، ويجرى على منهاجه ، ويبنى بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها ... »(٢٠) .

واذا كانت رسالته حول « الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى » قد ضاعت ولم تنج من السعير الذى أصلاه التوحيدى مؤلفاته ، فاني استنتج من عنوانها موضوعها أن للغة والنحو فيه نصيبا يقول أحد رواد الدراسات التوحيدية حول هذه الرسالة « أنا أرى لهذه الرسالة أهمية خاصة ... ألا يوحى العنوان هنا على الاقل أن أبا حيان عظيم العناية بشعر المتنبى ، حتى يقدم على رده على أبى الفتح عثمان بن جنى .... فمسألة دخول أبى حيان ميدان التسابق فى شرح شعر المتنبى أمر فى غاية الخطورة ، حيث تفهم منها انه اندفع فى رده على ابن جنى لسببين .... ورغبته فى مشاركة ابن جنى شرف الريادة فى فهم المتنبىء ... ولعل فعلة أبى حيان هذه هى التى دفعت بالمتأخرين الى التعرض الى ابن جنى باعتبار أن آراءه ليست نهائية .. » (٢١) .

---

(٢١) أبو حيان فى كتاب المقابسات /٨٦ .

ومما يوضح صورة « التوحيدى » نحويا ، ما ساقه من آراء فى كبار نحاة عصره ، كالسيرافى ، والفارسى ، والرمانى .. ، فقد سأله الوزير « ابن أبى سعيد » من أبى على وأبيه على بن عيسى منهما ؟

فأثنى على شيخه السيرافى ، وانتقص من مكانة الفارسى وقال عن الرمانى « عالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والنطق وعيب به »(٢٢) .

ومن مناحى الامتياز النحوى عند « التوحيدى » ادراكه صلة النحو بالمنطق يقول « ان البحث عن المنطق قد يرمى بك الى جانب النحو والبحث عن النحو قد يرمى بك الى جانب المنطق ، ولولا أن الكمال غير مستطاع ، لكان يجب أن يكون المنطقى نحويا ، والنحوى منطقيا » (٢٣) .

ان رجلا هذا فكره ، وهذا موقفه من النحو والنحاة لجدير فى نظرى بتناول مسائله التى آنس بها الوزير وأمتعه وقد تساءل أنى لى الوقوف على تلك المسائل ؟

فأقول : قصرت تناولى على ما حوته دفتا كتاب الامتاع والمؤانسة الذى وصفه القفطى بقوله : « هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص (٢٤) كل لجة » وقد رأيت من الباحثين من يقارن بين كتاب الامتاع ولياليه الأربعين ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » فيرى موضوعات الامتاع عقلية وواقعية وموضوعات ألف ليلة وليلة(٢٥) قصصية خيالية ، قد عجبت شطر هذا المؤلف لأنى قد ابتهرت حقيقة بشخصية هذا الوزير فقد صوره التوحيدى شخصية فذة لها المامها واهتماماتها بشىء مناحى ثقافات العصر .

---

(٢٢) الامتاع ٢/ (٢٣) الامتاع ٤/

(٢٤) أبو حيان التوحيدى (أعلام العرب ص ١١٤ ) .

هذا بالاضافة الى ما انفرد به كتاب الامتاع والمؤانسة من ذكر لهذه المناظرة التى تمت بين « السيرافى النحوى » وبين بن يوسف المنطقى حول « المنطق والنحو » وأيهما أحوج لصاحبه وأنفع فى الحياة ، هذه المناظرة التى تدل على قوة عجيبة فى اسوحيدى ، وهى مثل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين ، وقد صاغها التوحيدى بأسلوب يمزج بين السجع والمزاوجة (٢٦) .

وننتقل الآن بعد هذه المقدمات الى مسائل النحو التى أثيرت فى مجلس الوزير « ابن العارض » وتقدم بين يدى هذه المسائل بأمور . منها غلبة الجانب اللغوى والتصريفى عليها مما يدل على حسن ادراك التوحيدى ما بين المفردات من فروق ، وعن أثر الهيئة فى المعنى ، واذا لاحظنا أن المجلس يبدأ عادة باقتراح من الوزير لموضوع الحديث أو بالقاء بعض أسئلة تطلب لها اجابات ثم تتداعى الخواطر ويرتجل التوحيدى الجواب الموفق ، أدركنا قوة الملكة اللغوية عند التوحيدى . من ذلك : ما الفرق بين الحدث والمحدث والحديث ؟

وما الفرق بين حدث وحدث ؟ ويجيب التوحيدى : لا فرق بينهما الا من جهة أن حدث تابع لقدم(٢٧) ، لأنه فعال أخذه ما قدم وما حدث فى الليلة السابعة عشر .

١ ــ فى المصادر :

يسأل الوزير التوحيدى قائلا :

« ما تحفظ فى تفعال وتفعال فقد اشتبها » ؟

ويستطرد الوزير فى الكلام ليوضح انه ما وجد جوابا لسؤاله عند أبى عبيد الكاتب ولا عند مسكويه وفى هذا دليل على وفور الأدب ،

---

(٢٥) أبو حيان التوحيدى ص ١١٥ .

(٢٦) النثر الفنى فى القرن الرابع ص

(٢٧) الامتاع ١/٢٥ .

وبوار العلم • ويجيب التوحيدى رافعا الجواب الى شيخه السيرأفى ــ نضر الله وجهه ــ « المصادر كلها على تفعال ــ بفتح التاء ، وانما تجيء على تفعال فى الأسماء وليس بالكثير ، قال وذكر بعض أهل اللغة ستة عشر اسما لا يوجد غيرها ، ويطلب الوزير سرد هذه الأسماء » •

فيقول التوحيدى « التبيان والتلقاء •• والتهواء •• وتعشار ، وترباع •• » حتى يأتى على جميعها ويستحسن الوزير الجواب ثم يقول : فما تقول فى « تذكار » فيقول هذا مصدر وهو مفتوح (٢٨) •

ولا يكتفى الوزير بذلك بل يطلب منه • قائلا : « اجمع لى حروفا نظائر لهذا من اللغة ، واشرح ما ندر منها وعرض الشك لكثير من الناس فيها » •

وفى هذا دليل على ثقة الوزير فى تمكن صاحبه من اللغة •

٢ ــ لم قيل الجبر والقدر ، ولم يقل الاجبار ؟

والجواب : ان الاجبار لغة قوم(٢٩) والجبر لغة تميم •

ومما يوضح القدرة اللغوية عند « التوحيدى » ما نراه وقد سأله الوزير فى الليلة السادسة والثلاثين ، كيف تقول عند مهل الشهر شيئا آخر من لفظه ؟ ••• ثم يعرض عليه كلام الحاتمى حول الكلمات التى جاءت عينها عينا ولامها واوا • قائلا : هل فى حفظك هذه الكلمات ؟

هذا اختبار صعب « للتوحيدى » ولكنه الموفق فقد أجاب حاصرا لها شارحا بالمرادف المتداول منها [ البعو ــ الجعو ــ الدعو السعو ــ الشعو ــ الصعو ــ القعو ــ اللعو ••• الخ ] •

---

(٢٨) السابق /٢٨ •
(٢٩) السابق

ولا يترك التوحيدى هذا الموقف يمر حتى يذكر لنا نقد الوزير « للحاتمى » وتصويره له متهكما بقوله على لسان «الحاتمى » تخيلا « تنح فقد جاء الأسد ، وغلب الطوفان ، وخرج الدجال وطلعت الشمس من المغرب ... الخ » .

ومن مسائل التصريف الممتعه عند صاحبنا :

ما ساقه فى الليلة الحادية الثلاثين فقد قال الوزير ما رأيت من يفى باحصاء وجوه فعيل ومواقعها ؟ فكان الجواب :أن الأخفش قد ذكر عشرة أوجه وهى أكثر ما قدر عليه ، والتصفح قد دل على أربعين وجها وزيادة ، قال : فما أغرب ما مر بك منها ؟ فقيل : « فعيل » بمعنى « فعل » [ بفتح العين ] قال : هذا والله غريب فهات له شاهدا ، فقيل : يقال ( مكان دميث ودمث ) ( وبقين وبقن ) و ( رصيف ورصف ) وللفرس العتيد العدو ( العتد ) ... الخ وبعد أن ساق ألفاظا تشهد على ما ذكره سجل موقفا حسنا للوزير يذكره قوله : « ينبغى أن يعنى بهذه الوجوه كلها ، فان الزيادة على مثل الأخفش ظفر حسن وامتياز فى الغزارة جميل ، وما تفاضلت درجات العلماء الا بتصفح الأخير قول الأول واستيلاءه على ما فاته » (٣٠) .

ألست معى بأن مجلس الوزير اليوم يدفع بالنحوى الى مزيد الجد وسعة الاستيعاب ، وفيه دليل على ما سبق أن قدمته عن صعوبة ما يطرح فى البلاط من مسائل .

التعدى واللزوم :

يسأله الوزير هل يقال : ظفرت عليه ؟

ويجيب مستشهدا بقول الشاعر :

---

(٣٠) السابق

وكانت قرين أو ظفرتا عليهم ● شفاء لما فى الصدر والنقص ظاهر

ويتبع الشاهد بقوله : « الحروف التى تتعدى الى الأفعال والأفعال التى تتعدى بالحروف يراعى فيها السماع فقط لا القياس ، هذا كان مذهب امامنا أبى سعيد ، وقد جاء أيضا « ظفر به » ، وحماء سخرت به ومنه « ومن لا اتساع له فى مذهب العرب تظن أن سخرت به لا يجوز وهو صحيح • حكاه أبو زيد » •

قال ابن السيد « هذا الباب موقوف على السماع ، ولا يجوز القياس عليه وانما لم يجز أن يجعل مقياسا كسائر المقييس لأن الفعل انما يحتاج فى تعديته الى واسطة الحرف اذا ضعف عن التعدى الى معموله بنفسه فتعديه بلا واسطة دليل على قوته ، وتعديه بواسطة دليل على ضعفه » •

**مسألة فى جمع التكسير :**

جاء هذا فى الليلة الخامسة عشر فقد سأله الوزير :

قال : القذال كيف يجمع ؟ فكان من الجواب أن فعالا وفعالا فعالا وفعيلا وفعولا تجمع فى الأقل على أفعله ، يقال :

حمار وأحمره ، وغراب وأغربه ، وقذال وأقذلة ، وعمود وأعمدة •

وسأله :

كيف يقال فى جمل به غدة ؟ فكان من الجواب جمل مغد قال : فكيف

---

★ امتناع ١/٢٢١ وفى القاموس سخر منه وبه كفرح «ان تسخروا منا فانها تسخر منكم كما تسخرون » ، « الظفر » الفوز بالمطلوب ـ ظفره ظفر به وعليه • كفرح •

★ الاقتضاب ص ٢٦٤ دار الجيل •

★ امتناع ١/٢٢١ . جمع ٢/١٧٥ ( أفعله ) ويطرد فى اسم على رباعى ثالثه مده ألف او واو أو باء •

يجمع ؟ فكان الجواب بأنه فى القياس ظاهر ، ولكن السماع قد كفى ، قال الشاعر وهو خراس بن زهير :

فقد تكمو ولحظكمو الينا ببطن عكاظ كالابل الغداد

والشاهد هنا لم يسعفه حيث ان « الغداد » جمع « غاد » وليس جمعا لغد ، وجمع الغدة « غدات » وهى كل عقـدة يحيط بهـا شحم فى الجسـد* .

**مسـألة فى النسب :**

وفى الليلة ذاتها يسـأله الوزير : من لقبه الخـرس ، الى أى شىء ينسب ؟

فكان من الجواب : يقال رجل خراسـانى ، وخرسى ، وخراسى فنسبت الى رجل نزلها فاشتهرت به .

واذا تركنا ميدان اللغة والتصريف وحاولنا النظر فى مسائل النحو رأينا مسائل كثيرة مثبوته بين سطور هذا الكتـاب تناولها التوحيدى ليشبع فهم الوزير العلمى ، وليجيب عن استفساراته ولنبدأ بمسـألة جاءت ضمن حديث المالحة ، وقد استراده الوزير فكتب وريقات وقرأها بين يديه جاء فيهـا .

سمعت الحجـاجى يقول : « كل الخبز أو السـمك » فان أكل أحدهما كان مطيعا ، فاذا نفيت فقلت : « لا تأكل الخبز والسمك » فان أكل أحدهما لم يعصك ، واذا قلت : لا تأكل الخبز أو السمك لم يكن له أن يأكل أحدهما ، لأن التقدير فى النفى لا تأكل أحدهما ، والتقدير

---

★ تعليقات المحقق ١/٢٢١ وانظر الشافية ٢/١١٣ .

★ امتاع ١/٢٢١ .

فى الايجاب ائت أيهما شئت ، فهذه خاصية « أو » ويلاحظ أن النهى ليست منصبا على الفعل ذاته وانما على الفرق بين مفعوليه ، وهذا يعد أساسا لما يقوله البلاغيون أن النفى اذا دخل على جملة فيها ما هو زائد على أصل المعنى كان النفى أو النهى له ، كما فى « لا تضرب زيدا جالسا » .

ومما يصور عمق ادراكه لمعانى النحو ما قاله حول الآية :

« يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا واناثا ... » .

فقد قال الوزير : « قد شرف الله الاناث بتقديم ذكرهن ويعترض صاحبنا [ فى هذا نظر ] فقال الوزير ما هو؟ قلت : قدم لاناث ولكن نكر ، وأخر الذكور ولكن عرف ، والتعريف بالتأخير أشرف من النكرة بالتقديم .. ولم يترك هذا أيضا حتى قال : أو يزوجهم فجمع الجنسين بالتنكير مع تقديم الذكران .

قال الوزير هذا مستوفى :

أليس فى هذا الموقف ما يوضح جرأة العالم ، وسلطان العلم الذى لا يعلوه سلطان .

---

★ امتاع ٣/٧١ . راجع المباحث النحوية فى مسألة : لا تاكل السمك وتشرب اللبن . ومعانى« أو » المغنى ١/٦٠وقوله تعالى « ولا تطع منهم آثما او كفورا » فتح القدير ٥/٣٥٣ والاشمونى ١/٥٦٩ ، أمالى ابن الشجرى ٢/١٤٢ ، شرح المفصل ٨/٥٤ والهمع ١/٦٥ ..

★ امتاع ٣/١٠١ ، وانظر اعتراض ابى حيان وجوابه فى التفسير الكبير ٢٧/١٨٤ .

**الممنوع من الصرف :**

وفى الليلة الثلاثين يسأله الوزير — سراويل يذكر أم يؤنث ويصرف أم لا ؟

وسؤال الوزير وارد ، فهذه الكلمة استوقفت النحاة لبيان سبب منعها من الصرف ، قالوا : واما منع سراويل فاما لأنه أعجمى حمل على موازنة فى العربية ، اعتدادا بشبه الجمع ، أو لأنه عربى جمع « سروالة » تقديرا •

قال العصام فى شرح الكافية : « وقد سألنى الولد الأعز ••• حين قرأ على هذا الدرس لم لم يحمل على موازنة على تقدير كونه عربيا حتى احتيج الى تقدير الجمعية ؟ فاستحسنه كل من بلغه ذلك من الفضلاء ، فأجبته بأن الأعجمى غريب فى كلام العرب ، والغريب يتبع المتوطن المجانس ••• فاستحسن كما استحسن السؤال » •

وقد جاءت اجابة التوحيدى موافقة ما عليه النحاة فقد قال :

« ان على بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال : سألت المبرد فقلت : اذا كان الواحد فى صيغة الجمع ما يصنع به فى الصرف فى مثل شعره هراميل ، وهذه سراويل وما أشبهه ؟ » •

فقال : ألحقه بالجمع فامنعه الصرف لأنه مثله وشبيهه قال : وسألت أحمد بن يحيى عن ذلك فقال أخبرنا سلمه عن الفراء قال : الحقه بأحمد فامنعه الصرف فى المعرفة ، واصرفه فى النكرة حتى يكون بين الواحد والجمع فرق •

ونلاحظ هنا ذكر رأى البصريين والكوفيين بلا اختيار ولا ترجح •

---

★ امتاع ١٩٧/٢ •

« وسراويل » جاءت على صيغة منتهى الجموع أو الجمع الذى ليس على زنته واحد • نالت حروفه ألف بعدها ثلاثة أحرف أوسطها ساكن وليس فى آخرها تاء التأنيث ، وهذا النوع لا يتصرف معرفة ولا نكرة •• لأن فيه علتين الجمع ومنتهى الجمع أى أن كونه على وزن لا يكون عليه واحد علة تضاف الى الجمع فتجمع علتان ، يمنع بهما الصرف • قال ابن يعيش :

« كررت العلة وقامت مقام العلتين » •

ونلاحظ ما دار حول الكلمة من مناقشات تشعر بصعوبة مباحثها وأن منعها من الصرف مشكل ، احتاج الى اعمال فكر شأنه شأن غيره من مسائل النحو فى بلاط الأمراء •

واذا كانت المسائل المتقدمة ، قد استوقفتنا لنتناولها فى مجلس الوزير « ابن العارض » فها نحن أولاء أمام نماذج أسمى وأهم وأشهر قد اكتسبت ، ذلك لأنها قد تعرض لها فى مجلس الوزير « ابن الفرات » ثم أعيد درسها أمام الوزير « ابن العارض » ثم حكيت برمتها لأبى الوفاء المهندس ولى نعمة أبى حيان التوحيدى •

هذه المسائل تضمنتها المناظرة المشهورة بين « السيرافى » النحوى « ومتى بن يونس » المنطقى •

ومن خلال هذه المسائل ندرك صعوبة المتناول فى هذه المجالس ومدى حرص العلماء على ذكر المشكل من قضايا النحو •

وقد لاحظنا أن « السيرافى » وهو الشيخ الامام ، يطرح استفساراته النحوية المشكلة على «متى» قاصدا كبته ، ودحض دعواه بتفوق المنطق وفى هذ علو للنحو وأصحابه — يشهد لذلك قوله كثيرا :

---

★ المقتضب ٣/٣٢٧ ، المفصل ص ١٨ ، شرح المفصل ١/٦٣ .
حاشية س على شرح الفاكهى للفط ٢/٢٦١ •

أكان هذا فى نحوك ؟ أكان هذا فى منطقك ؟

وربما كان من مستبتعات الكلام أن أوجز أولا موقف « متى بن يونس » من النحو وهو المتمثل فى عباراته :

« هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه لأنه لا حاجة بالمنطقى اليه ، وبالنحوى حاجة شديدة الى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فان مر المنطقى باللفظ فبالعرض ، وان عثر النحوى بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى ــ قوله :

« يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف فانى اتبلغ بهذا القدر الى أغراض قد هديتها لى يونان » .

وثانيا موقف « السيرافى » من النحو وهو من مكرور الكلام فهو الذى كان يخاطب « بالشيخ الامام » وبالشيخ الجليل و « الشيخ الفرد » ومع ذلك فأقرأ قوله : « اذا قال لك آخر ــ كن نحويا لغويا فصيحا ، فانما يريد افهم عن نفسك ما تقول ، ثم رم أن يفهم عنك غيرك » .

انه كلام المتخصص المدرك لوظيفة فنه ، وكأنى به تيمثل يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » بهذا الشعور ألقى « السيرافى » فى بلاط « ابن الفرات » . معلوماته فربما كان هو المقصود بقول الوزير فى أول المجلس للعلماء « ... وانى لأعدكم فى العلم بحارا ، وللدين وأهله أنصارا ، ولملحق وطلابه منارا ... » ثم قوله « للسيرافى » :

« أنت لها يا أبا سعيد ، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار لنفسك ، راجع الى الجماعة بفضلك » .

ماذا تصنع لو كنت المقدم من أمير المجلس هكذا ؟ لقد عبر

« السيرافى » عما يدور بخلده بعد سماع كلام الوزير بقوله « مخالفة الوزير فيما رسمه هجنة ، والأحتجاز عن رأيه اخلال الى التقصير » .

وتبدأ المناظرة لا بل المبارزة بين « أبى سعيد » و « أبى بشر » ويكون متنوجها النحوى ما سوف نذكره من مسائل .

١ — وقوع « نعم » موقع « بلى » :

لقد حدد المستوى الصوابى لكل من الاداتين موطن استعمال ثبت واستقر لدى أصحاب اللغة سليقة أو اكتسابا ، ومع هذا رأينا « أبا بشر » لا يلتزم ذلك ، فقد سأله « السيرافى » :

« ... أفليس قد لزمتك الحاجة الى معرفة اللغة ؟ فيقول « نعم » وهنا يثور النحوى قائلا له : أخطأت ، قل فى هذا الموضع « بلى » .

ومؤاخذة « السيرافى » صادفت محلها ، لأن « بلى » حرف جواب يختص بالنفى ويفيد ابطاله سواء كان مجردا او مقرونا بالاستفهام ومن شواهده :

« ألست بربكم قالوا بلى » .

ولكن مع التوسع والتجوز ، قد تقع « نعم » موقع « بلى » ورجحه أهل الشرع ألا ترى انك لو قلت « نعم » فى جواب من قال : أليس لى عليك كذا درهم « ألزمك القاضى أداء المقربه »* .

ومع امكانية التعارض بين الاداتين ، أبى « السيرافى » الا تخطئه « أبى بشر » .

---

★ الاعراف ١٧٢ ، قال ابن عطية ، حق « بلى » أن تجىء بعد نفى عليه تقدير ، وهذا القيد لم يذكره غيره . وانظر الكليات . راجع البرهان ٢٦٤/٤ ، المغنى ١٠٤/١ ، عمده القارى ١٥٩/١٥ معانى الحروف ص ١٠٥ — امالى السهيلى ص ٤٥ .

٢ ــ الواو : يسأل « السيرافى » « أبا بشر » قائلا :

[ فحدثنى عن الواو ما حكمــه ؟ فانى أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغنى عنك شيئا ، وأنت تجهل حرفا واحدا فى اللغة التى تدعو بها الى حكمة يونان ، ومن جهل حرفا أمكن أن يجهل حروفا ، ومن جهل حروفا جاز أن يجهل اللغة بكمالها ..... ] .

انه التحدى الصادر عن ثقة بالنفس ، المدعوم بتشجيع الوزير .. الذى يتدخــل مشــجعا بعــد أن التزم « أبو بشر » الصمت قــائلا للســيرافى :

« أيها الشيخ الموافق أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشد فى افحامه ، وحقق عند الجمــاعة ما هو عاجز عنه ، ومع هــذا فهو مشــفع به » .

ونسأل « السيرافى » لم اخترت « الواو » دون سائر حــروف المعانى ، أللكثرة مباحثها وتشعبها ؟ أم لما لها من خصائص فى العطف ؟

ويتحدث « السيرافى » عن « الواو » قائلا :

« للواو وجوه ومواقع منها معنى العطف ... ومنها القسم ... ومنها الاستئناف ... ومنها معنى « رب » التى هى للتقليل نحو قولهم : وقائم الأعماق خاوى المخترق » ومنها أن تكون أصلية فى الاسم كقولك ــ واصل واقد واقد ــ وفى الفعل كذلك ، كقولك ــ وجل يوجل ــ ومنها أن تكون مقحمة نحوقول الله عز وجل :

« فلما أسلما وتلــه للجبن وناديناه » أى ناديناه ، ومثله قــول الشــاعر :

« فلما أجزنا ساحة الحى انتحى » المعنى وانتحى بنا ومنها معنى الحال فى قوله عز وجل « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » أى يكلم الناس

---

★ انصافات .  ★ مريم :

فى حال كهولته ، ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر كقولك « استوى الماء والخشبة » أى مع الخشبة » أهـ .

ونلاحظ أن « السيرافى » تكلم عن « الواو » حرف معنى ، و « الواو » حرف بنية وحوى كلامه الشاهد والمثال التعليمى والمثال الفصيح . ويمكن أن نستخلص من كلامه قضايا منها — القول بالزيادة فى حروف القرآن ، وهذه احدى مسائل الدرس النحوى فى القرآن ، فقد أنكرها كثير من العلماء (*) .

ومنها حرفية « مع » التى عبر عنها الزركشى بقوله : « واو » مع (*) ، فتنصب المفعول معه عند قوم . وهذا أيضا مشكل ، فالنحويون مازالت كلمتهم حول « مع » ليست على سواء منهم يراها حرفا ومنهم من يعدها اسما ومنهم من يحكم لها حسب حركة عينها ... وأنى لأبى بشر وهو المنقطى من هذه الزقاق والدروب الدقيقة فى مجاهل النحاة ؟ !

ولا أحب أن أزيد شيئا حول « الواو » حتى لا يتشعب المقال ، وتذوب الفكره التى هى عمدة هذه السطور وهى « تواجد الوزير وأثره فى توعية الدرس النحوى ورقيه » .

٣ — الى : حرف جر للغاية هكذا يقول النحويون ولكن الأصوليين لهم حولها وحول مدخولها مباحث ، لذا رأينا « السيرافى » بذكاء القاضى والمحقق ، ودهاء النحوى مضافا اليهما التأييد الوزيرى «لأبى بشر» .

« دع هذا ها هنا مسألة قد أوقعت خلافا ، فارفع ذلك الخلاف بمنطقك ، قال قائل : « لفلان من الحائط الى الحائط » م الحكم فيه ؟ وما قدر المشهود به لفلان ؟ فقد قال ناس : له الحائطان معا وما

---

★ راجع عمدة الحكام للطرطوسى ، الكامل للمبرد ١/٣٤٢ ، المقتضب ٤٨/١ ، البرهان ٢٧٢/٣ المزهر ٢٣١/١ ، البحر المحيط ٩٨/٣ .

★ البرهان ٤٣٥/٤ ، همع ٢٢٠/١ .

بينهما ، وقال آخرون له النصف من كل منهما ، وقال آخرون له أحدهما ...» .

حنانيك أبا سعيد بالرجل ، فهذه مسألتك لأنك قاض على مثلها درج فكرك ، فيتعجب « أبى بشر » أمامها تحصيل حاصل . فما قولك له « هات الآن آتيك الباهرة ، ومعجزتك القاهرة ، وانى لك بهما ، وهذا قد بان بغير نظرك ، ونظر أصحابك » .

وما يطلبه « السيرافى » من « أبى بشر » يعبر عنه دارسو حروف المعانى **من الأصوليين بقولهم** :

**هل تدخل الغاية تحت المغيا ؟**

والمحققون من النحاة على أنها لا تفيد الا انتهاء الغاية من غير دلالة على الدخول أو عدمه ومنهم من فصل بما لانراه من أغراض هذه السطور ويمكن الوقوف عليه فى مظانه .

٤ ــ مسألة فريدة ، لأنها جاءت لتحقيق رغبة الوزير فى اقحام « أبى بشر » رغبة صريحة اذ يقول للسيرافى :

« سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى ، فان هذا كلما توالى عليه بان انقطاعه ، وانخفض ارتفاعه فى المنطق الذى تبصره والحق الذى لا يبصره » .

يقول « السيرافى » ( ما تقول فى رجل يقول « لهذا على درهم غير قيراط » ولهذا الاخر على درهم غير قيراط . يقول أبو بشر : ما لى علم بهذا النمط ) يقول « السيرافى » لست نازعا عنك حتى يصح عند الحاضرين انك صاحب مخرقة وزرق .

ها هنا ما هو أخف من هذا ، قال رجل لصاحبه :

بكم الثوبان المصبوغان .

وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغان .

وقال آخر : بكم ثوبان مصبوغين .

« بين هذه المعانى التى تضمنها لفظ لفظ ... » ا هـ .

أى حناية ارتكبها « منى » حتى يقال كن هذا ، ولكنه السلطان يغرى الناس بعضهم ببعض وكم فى هذا من لذة ، وبخاصة عند ذوى الفكر الارستقراطى « كابن الفرات » .

٥ ــ وهناك مسألة قدمها لك « السيرافى » بقوله :

« دع هذا ، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلى أكثر من علاقتها بالشكل اللفظى ، ما تقول فى قول القائل « زيد أفضل الأخوة ؟ »

فيقول صحيح ، قال : فما تقول ان قال « زيد أفضل اخوته ؟ »

فيقول صحيح ، قال : فما الفرق بينهما مع الصحة ؟

وهنا يلتزم « أبو بشر » صمتا رهيبا ، بعجزه عن الجواب ، ويصور لنا التوحيدى موقفه بقوله « فبلح ، وجنح ، وغص بريقه » .

ولا يتركه السيرافى بل يزيد كمدا بقوله « افنيت على غير بصيرة ولا استبانه » حيال هذا التحدى ، يتذكر « متى » بالشجاعة قائلا : « بين لى هذا النهجين » ويكاد « السيرافى » يجهز عليه اذ يقول : « اذا حضرت الحلقة استقدت ليس هذ مكان التدريس ، هو مجلس ازالة التلبيس ، مع من عادته التمويه والتشويه ، والجماعة تعلم أنك أخطأت ، فلم تدعى أن النحوى انما ينظر فى اللفظ دون المعنى .. » .

وهذه المسألة من المشكلات تناولها الفارسى فى المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات ، ومع غموضها نرى « السيرافى » يطلب ايضاحها من « أبى بشر المنطقى » يا للعجب ؟ ولا يرغب بعد ذلك فى ايضاحها ، وتأتى الحيكة يتدخل أمير المجلس الوزير ابن الفرات قائلا « تمم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس والتبكيت عاملا فى نفس أبى بشر » .

وهنا يلجأ « السيرافى » الى اسلوب النحوى التربوى القاضى

فيقوم شوقا أهل الحضرة الى كلامه .

« ما أكره من ايضاح الجواب عن هذه المسألة الا ملل الوزير ، فان الكلام اذا طال مل » .

ويعطيه الوزير اشارة البدء المطمئنة قائلا :

« ما رغبت فى سماع كلامك ، وبينى وبين المثل علاقة ، فأما الجماعة فحرصها على ذلك ظاهر » لله درك أبا سعيد ، فلو كنت مكانك تتكلمت بعدة ألسنة فما بعد هذا تشجيع .

قال أبو سعيد « اذا قلت « زيد أفضل اخوته » لم يجز واذا قلت « زيد أفضل الأخوة جاز » والفصل بينهما أن اخوة زيد هم غير زيد ، وزيد خارج عن جملتهم والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال : من اخوة زيد ، لم يجز أن تقول : زيد وعمرو وبكر وخالد وانما تقول : « بكر وعمرو وخالد » ولا يدخل زيد فى جملتهم فاذا كان زيد خرجا عن اخوته صار غيرهم ، فلم يجز أن تقول « افضل اخوته » كما لم يجز أن تقول : « ان حمارك أفره البغال » لأن الحمير غير البغال، كما أن زيدا غير اخوته فاذا قلت : « زيد خير الأخوة » جاز لأنه أحد الأخوة والاسم يقع عليه وعلى غيره ، فهو بعض الأخوة ، ألا ترى انه لو قيل : من الأخوة ؟ عددته فيهم ، فقلت : زيد وعمر وبكر وخالد ، فيكون بمنزلة قولك « أفره الحمير » لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير ، فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف الى واحد منكور يدل على الجنس كما دل الرجال ، وكما فى عشرين درهم ومائة درهم » أهـ .

وقد يكون من المفيد أن تسوق معالجة النحاة لهذه المسألة من المشكلات ، فقد حكى الفارسى عن أبى بكر بن السراج انه لا يجوز « زيد أفضل اخوته » لأنه يلزم منه أن يكون أخا نفسه .

قال الشيخ : وجه لزوم هذا أن « أفضل » لا يضاف الا الى ما يكون بعضا له ، لا يكون فيه الا ذلك » .

وجاء فى المقتصب « ولا يضـــاف « أفعل » الى شىء الا وهو بعضه ، كقولك « الخليفة أفضل بنى هاشم » ولو قلت : الخليفة أفضل بنى تميم كان محالا ، لأنه ليس منهم » •

وفى حاشية يس « لا يكون المعرفة الا بعض ما يضاف اليه حيث قصد معنى التفضيل ، فلا يجوز « يوسف أحسن اخوته » على هذا القصد بل يقال « أحسن أبناء يوسف » •

وخالف فى ذلك « ابن عصفور » وقال : الصحيح انه ليس بعض ما يضاف ، والالزم تفضيل الشىء على نفســه • قال ولكن العــرب لا تضيفه الا لمــا يصلح أن يكون بعضا عند المفاضلة •

قال الأشمونى : يجوز « يوسف أحسن اخوته » ان قصد الأحسن من بينهم أو قصد حسنهم ، ويمتنع ان قصد أحسن منهم •

ويعلق الصبان قائلا « أى لكون النوى فيه معنى « من » يجب أن يكون بعض ما أضف اليه ، « وأفعل » هنا ليس بعض ما أضيف اليه ، والالزم اضافة الشىء الى نفسه •••• فلو قيل : « زيد أحسن اخــوة » صح لتحقق الشرط لأن يوسف أحد الأخوة » •

انتهت مناقشة المســألة التى كان مطلــوبا من « أبى بشر » أن يشرحها ولكنه أخرسه جهله بالنحو ، وشقق بها « أبو سعيد » بأسلوبه الذى انتزع اعجاب النظاره ورأينا الوزير يقول :

« ما بعد هذا البيان مزيد ولقد جل علم النحو عندى بهذا الاعتبار وهذا الاســفار » •

وكانت هذه العبارة ، مفتاح علم نطق به « السيرافى » ليحرز قصب السبق فى اكتشاف ما عرف بعد ــ بالنظم ــ الذى ارتبطت نظريتــه بالامام عبد القاهر حيث عرفه بقوله :

« هو توخى معانى النحو بين الكلمة « يقول السيرافى » « معانى النحو متقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحــروف فى

مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخى الصواب **فى ذلك وتجنب الخطأ من ذلك** » .

ويشير **فى عبارته الى مراتب الكلام فى الاستعمال** بقوله : وان زاغ شىء عن هذا النعت فانه لا يخلو من أن يكون سائغا باستعمال الندر والتأويل البعيد أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم ، فأما مايتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شىء مسلم لهم ، ومأخوذ عنهم وكل ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف » .

ألست معى أن هذا المزج بين علوم العربية ، ما كنا لنستخرجه من بين شفتى « السيرافى » لولا مقالة الوزير ، وهاك تحديد لوظيفة النحوى بينها « السيرافى » وهو يقدح زنادة ليورى بحضرة وزيره فيقول : اذا قال لك آخر « كن نحويا » ... وقدر اللفظ على المعنى فلا ينقص منه ، هذا اذا كنت فى تحقيق شىء على ما هو به » .

فأما اذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد ، فأجل اللفظ بالمرادف الموضحة والأشباه المقربة ، والاستعارات الممتعة ،وبين المعانى بالبلاغة ، أعنى لروح منها لشىء حتى لانصاب الا بالبحث عنها والشوق اليها ، لأن المطلوب اذا ظفر به على هذا الوجه عز وحلا ، وكرم وعلا ... » هذا هو نحو السيرافى — بل هذا هو نحو القصر والمقصورات وهاك كتب النحو مطولات ومختصرات ، هل ظفرت بينها بمثل هذا التشقيق ، وهل أحسست بين سطورها بما يقرب هذه الظلال . انه التأييد والتشجيع ، انطق الرجل ، واستخرج مكنونات مؤداه . ليحقق نصرا يفخر به النحاة .

وقد تسأل أين « السيرافى » من تحديد العلاقة بين النحو والمنطق ؟ فأقول : ان الاجابة على هذا التساؤل **فى قول « السيرافى » النحو** منطق ، ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة » .

أيها القارىء : مازال مجلس الوزير منعقدا ، وبالرغم من كثرة ما ذكرناه من مسائل ، نرى « السيرافى » يقول :

« لم أحفظ عن نفسى كل ما قلت ، ولكن كتب ذلك أقوام حضروا فى ألواح كانت معهم ومحابر أيضا ، وقد احتل على كثير منهم وقد صور الرمانى نهاية المجلس بقوله :

« وتقوض المجلس ، وأهله يتعجبون من جأش أبى سعيد الثابت ، ولسانه المنصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده المتتابعة •

ولنترك الآن الوزير « ابن الفرات » لنعاود الحديث مع « الوزير ابن العارض » الذى يسمع ثناء التوحيدى وتصويره سعة علم شيخه « السيرافى » وكيف أن ملك سجستان كتب اليه يخاطبه بالشيخ الفرد ، ويسأله عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلمة فى العربية ، وثلاثمائة بيت من الشعر ••••• فينطق « ابن العارض » موجها كلامه « للتوحيدى » وهذه المسائل والجواب عنها عندك ؟

ويجيب بالايجاب وانها تقع فى ألف وخمسمائة ورقة ••• ويحرص الوزير على مزيد من الافادة فيقول :

« ما أحوجنا الى النظر فيها ، والاستمتاع بها ، والاستفادة منها ، وأين الفراغ ؟ وأين السكون ؟ ونحن كل يوم ندفع الى طامة تنسى ما سلف ، وتوعد بالداهية ••• » •

ثم ماذا ؟ ان الليل قد ولى ، والنعاس قد طرق العين عابثا ، والرأى أن تستجم لتنشط ، وتستريح لتتعب فالى لقاء بعد أن آنستك وأمتعتك وأجلستك مع الوزراء والأمراء ، واذا التقينا ان شاء الله فسوف اضع بين يديك نحوا آخر غير ما تعودته •••